هجرة الريف إلى المدن

لحضرة صاحب السعادة الدكتور محمد حسين هيكل باشا

الريف المصرى الجميل نحبه ونقدسه ، لأنه منبتنا جميعا ومنبت آبائنا وأجدادنا ، كما أنه منبت حضارات أظلت العالم زمنا فتغنى العالم ولا يزال يتغنى بآثارها . وقد رأيت أن أعالج مسألة هجرة هذا الريف الجميل إلى المدن وأبحث أسبابها ونتائجها . فكلنا متفقون على أن هذه الهجرة قد أضرت بلادنا كما أضرت غير مصر من بلاد العالم . فلنتوجه بمجهودنا الى منع هذا الضرر ، ولنعمل لعود أهل الريف الى الريف ، نسد لوطننا خدمة جليلة ، ونرد الى ريفنا جمالا ونضرة وخصبا ، ما أبهاها ، وما أكثر ما أضاعت الهجرة إلى المدن منها .

قلّ من بلاد العالم ما تطرد زيادة السكان فيه بالنسبة التى تطرد بها فى مصر . فقد كان عدد سكانها فى سنة ١٩١٧ — ١٢,٧١٨,٢٥٥ نسمة فأصبح فى سنة ١٩٣٧ ، أى بعد عشرين سنة ١٥,٩١١,٥٢٥ نسمة ، أى أنه زاد فى هذه الفترة الوجيزة بنسبة خمسة وعشرين فى المائة . وقد كانت الزيادة مطردة فى المدن وفى الأرياف جميعا . لكن نسبتها فى المدن كانت أعلى من نسبتها فى الأرياف بصورة محسوسة . فقد زادت فى المدن من ١,٨٨٢,٥٨١ نسمة إلى ٢,٩٤٢,٦٩٥ نسمة ، أى بنسبة ٥٦ فى المائة . أما فى الأرياف فزادت من ١٠,٨٣٥,٦٦٦ نسمة إلى ١٢,٩٦٨,٨٣٠ نسمة ، أى بنسبة ١٩ فى المائة . ولقد كانت القاهرة أكثر مدن مصر ازديادا فى عدد السكان . كانت فى سنة ١٩١٧ تعد ٧٩٠,٩٢٩ نسمة فزادت فى سنة ١٩٣٩ إلى ١,٣١٢,١٠٥ نسمة ، أى بنسبة ٦٦ فى المائة . هذه الفوارق الكبيرة فى نسبة الزيادة ما بين ١٩ فى المائة للأرياف إلى ٥٦ فى المائة لمجموع المدن و ٦٦ فى المائة للقاهرة تستوقف النظر وتشهد بأن هجرة الريف إلى المدن مشكلة اجتماعية جديرة بأن نصل من بحثها إلى علاج ناجع لها .

ويجب علىّ قبل أن أفكر فى العلاج أن أبحث أسباب هذه الهجرة . ومن الحق علىّ أن أذكر أن جانبا من هذه الهجرة طبيعى لم يكن منه بد ، بل هو قد كان ضرورة لازمة لإصلاح استدعاه . فالصناعة فى مصر قد تقدمت فى العشرين السنة الأخيرة تقدما محسوسا . وقد نشأت أكثر الصناعات فى المدن ، فاقتضى ذلك انتقال عدد كبير من أهل الريف الذين اشتغلوا

فى هذه الصناعات إلى العواصم . ونظرة فى الإحصاء تدل على ذلك دلالة واضحة . صحيح إن صناعات كبيرة قد نشأت فى غير العواصم فضاعفت سكان البلاد الريفية التى نشأت فيها . فصناعة الغزل والنسيج قد ضاعفت سكان المحلة الكبرى وغيرها من الجهات التى استخدمت فيها . وصناعة السكر قد ضاعفت سكان المراكز التى يصنع السكر فيها ، وكلها فى الريف .

لكن المدن والعواصم قد فازت من حيث هجرة اليد العاملة من الزراعة إلى الصناعة بنصيب الأسد . وهذه الهجرة ضرورة قضى بها تطور إصلاحى لم يكن منه بد .

يضاف إلى نشوء الصناعات انتشار التعليم ومعاهده ، وما أدى ذلك إليه من ازدياد عدد السكان فى المراكز التى أنشئت فيها هذه المعاهد . وقد فازت المدن من ذلك بحظ عظيم . ولو أننا قارنا بين عدد المعاهد والملتحقين بها فى سنة ١٩١٧ وعددها وعدد هؤلاء الملتحقين بها فى سنة ١٩٣٧ لتبينا أن جانبا ، قد لا يكون عظيما ، من هجرة الريف إلى المدن قد نشأ عن هذا الإصلاح فى التعليم إصلاحا لم يكن منه بد .

لكنا لا نستطيع أن نرد سبب الهجرة كلها إلى هذه العوامل الطبيعية التى قضى بها التطور الاقتصادى والاجتماعى فى مصر . بل لعل هذه الهجرة الطبيعية لا ترتفع إلى أكثر من عشرة فى المائة بالنسبة إلى عدد زيادة السكان فى المدن . فاذا قدرنا أن هناك زيادة طبيعية أخرى سببها تزايد النسل خلال هذه السنوات العشرين تقدر بعشرين فى المائة — وهذا تقدير قد لا يخلو من المبالغة — تبينا أن خمسة وعشرين فى المائة من زيادة عدد السكان فى المدن ترجع إلى أسباب لا علاقة لها بالتطور الاقتصادى والاجتماعى ، ولا علاقة لها بالزيادة الطبيعية فى التناسل . وهذه النسبة ترتفع بالزيادة إلى ما يزيد على نصف المليون ، وهى الزيادة التى سببت مشكلة الهجرة من الريف إلى المدن . فما أسبابها ، وما علاجها ؟

وليس من اليسير أن أستقصى أسباب مشكلة اجتماعية كهذه المشكلة فى بحث وجيز كالذى أعرضه فى هذا المقال . فحسبى أن أشير إلى أهم هذه الأسباب ، وأهمها فى رأيى قسوة الحياة فى الريف واعتقاد كثيرين أن سبل العيش فى المدن أكثر يسرا ورخاء . قد يكون هذا الاعتقاد غير صحيح . ولا أدل على فساده مما نسمعه من الحديث عن العطلة بين المتعلمين وغير المتعلمين ، فهذه العطلة لا علاقة لها بالريف البتة ، وإنما علاقتها بالمدن . لكن الذين يتيسر لهم العمل بالمدن يجدون الحياة أكثر رخاء ، فإذا زارهم أهلهم أو زاروا أهلهم تمنى كثيرون أن يكونوا مثلهم ، فإذا أنس أحدهم فى نفسه أنه يستطيع أن يجد إلى عيش المدينة الوسيلة هجر الريف ولم يقم به .

هذا هو السبب العام ، وهذا طبيعى فى الإنسان ، فكل واحد منا مدفوع بفطرته الى التماس أحسن أنواع الحياة ، بأقل مجهود ممكن ، وحياة الفلاح ليست أحسن أنواع

الحياة ، بل لعلها أسوؤها. ومجهود الفلاح ليس أقل مجهود ، بل لعله أشقه، فاذا أضيف إلى ذلك أن إنتاج الفلاح فى الظروف الحاضرة قليل ضئيل تبين لنا السبب الأساسى لهجرة الريف .

ما هى العوامل التى أدت إلى هذا السبب العام ؟ لماذا فقد الريف ما ألف من قبل من رخاء . ؟ ولماذا أصبحت الحياة فيه قاسية ومرغوبا لذلك عنها ؟

هذه العوامل كثيرة، فى مقدمتها هجرة الملاك من الريف إلى المدن، هؤلاء الملاك الذين كانوا فى الماضى ، وكان آباؤهم من قبلهم ، لا يعدلون بالعناية بأرضهم شيئا ، لأنهم كانوا يجدون فى هذه العناية السعادة والجاه والرخاء، قد وجدوا فى زخرف المدن ما أغراهم بالانتقال اليها، وبخاصة بعد إذ خيل إليهم أنهم يستطيعون أن يستعيضوا ما ينقص من غلات أرضهم لانصرافهم عنها بزيادة مساحة هذه الأرض بما يشترونه بالدين، أو بما يستأجرونه ويؤجرونه لغيرهم من أملاك ذوى الأملاك الواسعة من الملاك المقيمين أنفسهم بالمدن ، وقد رأى هؤلاء الأعيان من أهل الريف أخيرا ماجر ذلك عليهم من ضرر، وهم يتمنون اليوم لو يستطيعون العودة إلى بلادهم ، لكنهم ألفوا حياة المدن فلم يصبح فى مقدورهم أن يتركوها . كما أنهم أصبحوا مشتبكين مع البنوك والدائنين ، مضطرين بحكم هذا الاشتباك إلى أن يقضوا فى المدن وقتا طويلا يحول بينهم وبين العودة إلى الريف .

ومن هذه العوامل كذلك أن الإصلاح يسير فى الريف بخطى أبطأ بكثير عما يسير فى المدن، ولذلك يجد الناس من متعة العيش فى المدن مالا يجدونه فى الريف، ولو أن الحكومة المصرية فى وزاراتها المتعاقبة أعارت الريف عناية تعدل عنايتها بالمدن لخفف ذلك من مشكلة الهجرة. أنا أعلم أن ذلك الأمر غير يسير ، لأنه يقتضى مجهودا ضخما ونفقات طائلة يقتضى ملايين كثيرة جدا . لكنى أعتقد مع ذلك أنه جوهرى فى حياة البلاد ، جوهرى فى تقدمها الاقتصادى ، وأنه لذلك مثمر بردّ فائدة كبيرة على رأس المال الذى ينفق فيه .

ولست أبالغ حين أذكر أن السير فى إصلاح الريف يقتضى ملايين كثيرة جدا، وحسبى أن أذكر أن هذا الإصلاح يتناول إنشاء الطرق التى تقرب البلاد بعضها من بعض ، وتقربها من المدن، وأنه يقتضى إصلاحا صحيا واسع النطاق، وإصلاحا تعليميا واسع النطاق كذلك، حسبى أن أذكر ذلك لنقدر هذه الملايين. هذا إلى ما يجب من تنظيم القرى تنظيما جديدا يتفق وهذه النهضة العمرانية التى تهتز بها البلاد . مع ذلك أكرر أن ما يتم فى الريف من الإصلاح يردّ من الثمرات ما يربى على أية فائدة تدفع عن رأس المال الذى ينفق فى هذه الأغراض .

وإذا وجب إنشاء الطرق ووجب الإصلاح الصحى والإصلاح التعليمى لرفع مستوى المعيشة فى القرية بما يحبب إلى الناس الإقامة بها والعود اليها ، فان زيادة الإنتاج الزراعى فى مقدمة ما تجب العناية به لمنع هجرة الريف إلى المدن . لقد ذكرت أن أهم أسباب هجرة الريف قسوة الحياة فيه واعتقاد كثيرين أن سبل العيش فى المدن أكثر يسرا ورخاء . هذا اعتقاد سائد اليوم فى الأوساط جميعا . سائد فى المدن وفى الريف على السواء . وليس بين الناس من لا يذكر أن إيراد الأراضى الزراعية لا يقل أكثر من خمسة فى المائة ، على حين يقل إيراد العمارات بالمدن ثمانية فى المائة أو أكثر ، وتقل الصناعة أو التجارة أضعاف ذلك. مادام هذا الاعتقاد سائدا فستكون هجرة الريف نتيجة محتومة له ، وستقاسى البلاد مع الوقت من نتائج هذه الهجرة أضعاف ما تقاسى اليوم . فاذا أردنا منع تيار الهجرة وجب أن يؤمن الناس بأن الإنتاج الزراعى يوازى غيره من صور الإنتاج . بذلك يصبح توزيع السكان وهنا بالكفايات فى الأعمال المختلفة ، و يصبح التفوق فى الزراعة كالتفوق فى الصناعة أو فى غيرهامن أسباب السعى فى الحياة جديرا بأن ينال ثمرة توازى ثمرة العمل فى غير الزراعة من أسباب السعى.

هذه عبارات وجيزة عما أعتقده أهم الأسباب لهجرة الريف إلى المدن وأنجع الوسائل لمعالجة هذه الأسباب . وليس يتسع المقام للتفصيل ، ولا لتناول سواها من أسباب الهجرة . على أنى أحسب القارئ قد رأى فى هذه الإلمامات السريعة مبلغ ما تتصل هجرة الريف بالمشاكل الاقتصادية والاجتماعية المختلفة فى مصر. فهى تتصل بمشكلة العطلة ، وتتصل بمشكلة الحال الصحية وما يترتب على إصلاحها من زيادة المقدرة على الانتاج ، وتتصل بمشكلة التعليم وسياسته . وتتصل بالحياة الصناعية الناشئة فى البلاد ، وتتصل بالثروة القومية فى صميمها . وهذا الاتصال يشهد بأهمية هذه المشكلة الاجتماعية ، كما يدل على أن معالجتها تتناول معالجة كثير من المسائل التى تستعجل العلاج فى هذه البلاد .

واذا كان لهذا الاتصال بين هجرة الريف وألوان الإصلاح المختلفة دلالة أو مغزى فدلالته واضحة على أن الإصلاح فى البلاد يجب أن توضع له سياسة عامة مدروسة مبحوثة ، ويجب ألا يسود فيه الارتجال ، ويجب أن ينظر فيه إلى المستقبل بدقة تزيد على النظر إلى الحاضر. فالإصلاح الاجتماعى كالغراس . الشجرة التى نغرسها اليوم لا تثمر غدا ، بل تثمر بعد أشهر ، أو بعد سنين . وكما يجب على من يغرس الشجرة أن يعرف منذ اللحظة الأولى إن كانت شجرة مثمرة أو كانت من أشجار الأخشاب ، وكما يجب أن يعرف مبلغ ما تستنزف من قوة الأرض ليعالجها بنوع بذاته من السماد وأن يقدر وسائل تعهدها أثناء نموها ، كذلك يجب على من ينهض بالإصلاح أن يعرف مداه وأن يقدر نتائجه وأن يكون ملما بأسباب الشر عليه وتعهده.

محمد حسين هيكل